من مذكرات بلنت

صفحات مجهولة من حياة الامام محمد عبده

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣

كان الشيخ عبده قد نقل كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر عن « التربية » من الفرنسية إلى العربية بلغة جزلة صحيحة ورأى بهذه المناسبة أن أقدمه إلى مؤلف الكتاب

فذهبت مع الشيخ عبده اليوم إلى بريتون لنزور سبنسر، وكنت قد كتبت إلى سبنسر فى ذلك الشأن وأنبأته بأمر هذه الزيارة ، فأرسل عربته وسكرتيره مستر تروتون ليقابلنا فى محطة بريتون . ولما وصلنا إلى المنزل ألفينا الفيلسوف الشيخ طريح الفراش من شهر ابريل الماضى . ولم يكن المرض الذى انتابه قد أثر فى عقله بتاتاً ، بل ظل ذهنه صافياً وصوته قوياً ، ولكن يده كانت ناحلة تحول يد الهيكل العظمى . وقد استقبلنا وقتاً قصيراً قبل الغداء، ثم عاد فاستقبلنا فى الساعة الثالثة ، وحاول فى بادئ الأمر أن يتكلم الفرنسية فتكلم ببطء وصعوبة . ثم عاد إلى الانجليزية ، ورحت بدورى أترجم للشيخ عبده

نعى سبنسر على السياسة الحديثة اختفاء « الحق » منها ، وتكلم عن حرب الترنسفال فنعتها بأنها وصمة فى جبين الإنسانية وقال : لا شك أننا مقبلون على عصر « قوة » عصر تثار فيه الحروب من أجل السيطرة وتباح فيها جميع ضروب الوحشية

وتناول فى جلسة الساعة الثالثة ظهراً حديث الفلسفة ، وسأل المفتى عما إذا كان الفكر يتطور حقا فى الشرق إلى ناحية الغرب . فقال الشيخ عبده : الواقع أن الشرق يأخذ عن الغرب أسوأ ما فيه وإن كانا ما زالا مشتركين فى خير الأفكار وأرقاها .

وهنا قال سبنسر : لنذهب ترا إلى صميم الموضوع . إننى أعتقد أن الفكرة عن القوة المحركة للوجود ، هى ما تسميه « الله » وما نطلق عليه نحن « الرب » وهى متقاربة عندنا وعندكم . فأجاب المفتى بنظرية وجد سبنسر أنها جديدة طريفة . فقال الشيخ عبده : إننا نؤمن بأن الله « موجود » غير مشخص . فسر سبنسر من ذلك غير أنه لم يلبث أن أجاب : إن الفكرة صعبة الفهم ، وزاد على ذلك : إنه من الواضح على كل حال أنكم من المتعمقين فى التفكير تعمقنا نحن معاشر الأوربيين

ومع الأسف لم يكن فى وسعنا أن نتمادى فى هذه الأبحاث الطريفة ، فإن سبنسر لم يكن يسمح له بإطالة الحديث بالنسبة لمرضه . غير أنى فى أثناء عودتنا إلى المحطة سألت المفتى سؤالاً دقيقاً : أتعتقد أن الله يعلم أنك موجود وأنى موجود، أو لا تعتقد أن هذا العلم هو شخصيته ؟

— إنه يعلم

— أو لا تعتقد أنه يعلم بالطيب والخبيث؟

— إنه يعلم

— وأنه يسر بالطيب ويسوءه من الخبيث ؟

— أجل.

ومن سوء الحظ أن الوقت لم يتسع لنناقش سبنسر ونقف على رأيه فى هذا الأمر وإن أمكن أن نلمح بريقاً خاطفاً من تفكيره فى الموضوع

أما النساء اللواتى عرفتهن فى صحبته ، فما يزلن يلازمنه من سنوات أربع . وقد وقفت منهن على معلومات طريفة عن حياته الخاصة ، وأكثرهن علاقة به امرأة صماء . وليس لديه صديق ، ولم يزره أحد من شهر ابريل الماضى سوى ثلاثة أو أربعة أصدقاء ، ولكن صحته بدأت تتحسن ، وشرع يستعيد بعض نشاطه ، وأمكنه أن يقضى الصيف قرب « تل ليف » وأن يخرج برفقتهن إلى نزهات خلوية ، وكان يجد سروراً مضاعفاً من رؤية الزهور والطيور ، وهو الآن يجالسهن ويلاعبهن الشطرنج والصامة .

وتتميماً للفائدة نثبت هنا ما كتبه الشيخ رشيد رضا فى تاريخه عن الإمام محمد عبده ومقابلته للفيلسوف سبنسر ليمكن المقارنة بين ما سجله بلنت وبين ما دونه رشيد رضا :

« قلنا إنه فى سفره الأخير إلى إنجلترا عام ١٩٠٣ زار الفيلسوف سبنسر ، وكان ذلك فى ١٠ أغسطس . وكان الفيلسوف مصطافاً فى برايتون من جنوب إنجلترا وقد أنهاه الأطباء عن كثرة مقابلة الناس ، وعن الحديث مع أحد أكثر من عشر دقائق لمرضه مع شيخوخته ، ولكنه سر من حديث الأستاذ الإمام ، ودعاه إلى

القداء معه ، وأطال الحديث إليه فى فلسفة الدين والأخلاق والأفكار والمادية وسياسة أوربا

وإنى أذكر ملخص ما حدثنا به أستاذنا من ذلك وأرمز إلى سبنسر بحرف « ف » المقتطعة من « فيلسوف » وإلى شيخنا بحرف « م » المقتطفة من كلمة « إمام » :

ف — هل زرت إنجلترا قبل هذه المرة ؟

م — نعم زرتها منذ عشرين سنة

ف — كيف وجدت الفرق بين الإنجليز اليوم والإنجليز منذ عشرين سنة ؟

م — إنى زرت هذه البلاد فى المرة الأولى لغرض سياسي خاص هو البحث مع رجال السياسة فى مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطانى وأقمت أياماً قلائل لم يتسع عملى فيها ما جئت لأجله . وقد ألممت بها الآن منذ أيام فلم أدرس حالة الناس ، وإنما يجب أن آخذ عنكم ذلك

ف — إن الإنجليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة

م — فيم هذه القهقرى وما سببها ؟

ف — يرجعون القهقرى فى الأخلاق والفضيلة ، وبين تقدم الأفكار المادية التى أفسدت أخلاق اللاتين قبلنا ، ثم سرت إلينا عدواها ، فهى تفسد أخلاق قومنا وهكذا سائر شعوب أوربا

م — الرجاء فى حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة على الأخلاق المادية

ف — إنه لا أمل لى فى ذلك لأن هذا التيار المادى لا بد أن يأخذ مداه وغاية حده فى أوربا . إن الحق عند أهل أوربا هو الآن للقوة

م — هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هى التى حملت الشرقيين على تقليد الأوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق فى معرفة منابعها .

ف — محى الحق من عقول أهل أوربا بالمرة ، وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض ليتبين أيها الأقوى ليسود العالم أو يكون سلطان العالم

ثم انتقلا إلى الكلام فى الفلسفة الإلهية

ف — ما يقول علماء الإسلام فى الخالق ، هل هو داخل العالم أو خارجه ؟

م — إن علماء الأثر يقولون إن الله تعالى فوق كل شىء بائن من العالم ، والمتكلمين يقولون : إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، والصوفية القائلين بوحدة الوجود يقولون : إن كل شىء فى العالم مظهر من مظاهر وجوده ، وذكر له ملخص مذهبهم .

نوفمبر ١٩٠٣

انتهز الشيخ عبده فرصة قدومه إلى انجلترا فزار جامعة اكسفورد واستقبل استقبالاً حافلاً من أساتذتها خصوصاً المستشرق براون الذى أقام له حفلة تكريم شهدها أساتذة الكلية. ولدى تفقد الشيخ عبده القسم الشرقى من مكتبة الجامعة عثر على مخطوطات عربية نادرة ، أكثرها معروف بالاسم فقط لدى رجال الأزهر ؛ واهتم اهتماماً زائداً بمخطوط لأحد فلاسفة العرب « الساعى El Sebaïn » ، فيه رسائل إلى فردريك الكبير، وقد ذكر الشيخ عبده أنه سوف يكلف إدارة الأوقاف بنسخ المخطوط

وتناول الشيخ عبده فى حديثه معى زيارته لتونس والجزائر وشرح سوء حالتهما بالمقارنة بينهما وبين مصر ، ووصف تلك المقارنة بأنها كالفرق بين الظلام والنور . ثم عرجنا فى الحديث على موقف الخديو فقال الشيخ عبده : إن الخديو جشع يعمل كل شىء فى سبيل جمع المال، وإنه يريد أن يستبدل ببعض ما يملك أطياناً وعقاراً كلها وقف . ثم إن الخديو ينم ظاهره عن صداقته ، ولكنه يعمل فى الباطن لإقصائه عن وظيفة الافتاء

١٧ يناير سنة ١٩٠٤

أفضى إلىّ المفتى بأنه كان فى الأسكندرية وقابل الخديو ، وهو كعادته معه ، له مقابلة حسنة ، ومقابلة سيئة . ظاهره ضحك وباطنه دسائس وانتقام . ويقول إن الخديو متضايق منه بسبب الفتاوى الثلاث التى أجاب بها عن أسئلة مسلمى الترنسفال وهى :

١ — هل للمسلم المقيم فى بلاد أجنبية أن يأكل لحماً لم يذبح على الطريقة الإسلامية ؟

٢ — هل للمسلم المقيم فى بلاد أوربية أن يلبس القبعة ؟

٣ — هل للشافعى أن يقف فى صف واحد مع الحنفى فى الصلاة ؟

وقد أجاب المفتى بما يرضى ضميره . ولكن الخديو اعتبر ذلك كفراً . مع أنه هو نفسه يأكل ويلبس القبعة ، ولا يقيم الصلاة فى البلاد الأجنبية . على أن كروم فى جانب المفتى ، وذلك ما يوجب الدهشة !

٢٢ يناير سنة ١٩٠٤

تندى الفتى معنا فى الحديقة ، تحت شجر الغاب الإفرنجى ، وهو متألم لوفاة عالم من علماء الأزهر وخصوصاً أن الخديو مصمم على أن يحدث متاعب لخلفه . وعند ما تتكلم على الخديو ينعته بقوله : « وجلنا الصغير » !

ومن أحاديثه : أن الخديو منهمك الآن فى الأعمال المالية ، والتجارية ، إلى حد أن كروس خيره بين أن يظل خديوياً محترماً وبين أن يكون تاجراً محترفاً . وهذا حق ، وخصوصاً أن بعض أفراد أسرة محمد على يحبون المال حباً جماً .

١٣ ابريل سنة ١٩٠٥

فى حديث اليوم مع الشيخ عبده تفضل وأخبرنا بقصة طريفة لا بأس من إيرادها : فى أثناء نفيه إلى بيروت عام ١٨٨٣ ، حدث أن كان قيس مقيما فى انجلترا اسمه اسحق تيلور يقوم بدعاية واسعة النطاق الغرض منها توحيد الإسلام والنصرانية على أساس فكرة التوحيد الموجودة فى الإسلام والشائعة عند الكنيسة الإنجليكية . وكان هناك شخص إيرانى من أتباعه اسمه ميرزا بكر يشايعه فى فكرته . وقد تمكن من التأثير فى الشيخ عبده ، وفى طائفة من علماء دمشق ، فكتبوا إلى القس تيلور فى الموضوع . وما إن وصل الكتاب إلى القس حتى فرح به ونشره مستعيناً به على صحة دعواه ، إلا أن السلطان عبد الحميد كلف سفيره فى لندن أن يستقصى حقيقة الموضوع ويقف على أسماء موقعى الكتاب ، فقابل القس وحصل منه على هذه الأسماء ؛ وقد أحاق بهؤلاء العلماء فيما بعد عذاب أليم وقرر السلطان إبعادهم عن الديار السورية . . . ويقول الشيخ عبده إن السر فى غضب السلطان أنه خشى أن يعتنق الإنجليز الإسلام ، ثم يطلبوا أن يكونوا أصحاب الدولة فى الإسلام وتكون الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين . . . ويذهب السلطان من السلطان . . . وسبحان مدبر العقول

١٩ فبراير ١٩٠٥

عاد الشيخ عبده من السودان وأطلعنى على تفاصيل زيارته وأنه مغتبط بما رآه وشاهده ، فالحكومة هناك أحسن إدارة منها فى مصر ، والأهالى قانعون حتى عن مسألة النخاسة ، والدراسة فى كلية غردون على أساس معقول موافق

وعنده أن قانون العقوبات السودانى أسهل وأحسن من القانون المصرى ، وأن السردار يحكم بالعدل ويسود بالحكمة واللين ، وأن هناك شعوراً حسناً متبادلاً بين الإنجليز والسودانيين

١٧ مارس ١٩٠٥

ودعت الشيخ عبده هذا الصباح . ويلوح لى أن هذا السفر إلى الأبد فلا عودة منه . على أن المكان — عين شمس — حبيب إلى نفسى لشمسه المتألقة وسمائه الصافية وما يكتنفه من خضرة وطير . فيا إلهى ! من ذا الذى يرعى ذلك كله إذا ما ذهبت ؟

وحضر الشيخ عبده إلى المحطة يودعنى وبقينا نتحدث طول الوقت إلى آخر لحظة تحرك فيها القطار . وكان وداعاً مؤثراً حزيناً لأن شعورى أوحى إلىّ بأنى سوف لا أراه بعد ذلك

٨ يونيه ١٩٠٥

إن الحادث الذى هز عواطفى هو حادث وفاة الشيخ عبده . فإن ذلك من أفدح النكبات التى صادفتها فى حياتى كذلك موته خسارة جسيمة للعالم الإسلامى . وإنه ليداخلنى الريب فى كيفية موته ، فربما كان موتاً غير طبيعى ، وإن له خصوماً سياسيين كثيرين

١٥ يوليه ١٩٠٦

قدم مصطفى كامل باشا إلى لندن وجرت بيننا مقابلة طويلة استعرضنا فيها موقف الخديو والأحوال الدولية وسياسة الاحتلال البريطانى والفازى مختار . . . ثم انتقلنا إلى الحديث عن المرحوم الشيخ عبده فذكره مصطفى كامل بتحفظ وأخذ عليه تمسكه بمنصبه الرسمى على رغم تحقير الخديو له . وهو لو احتفظ بكرامته وترك المنصب لجعلناه إماماً فى الحرية والوطنية ، ثم تناول حادث وفاته وقال إنه كان بداء السرطان كما أخبره طبيبه قبل موت الشيخ بثلاثة شهور

محمد أمين حسونة

معهد التناسليات
معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس هيرشفلد فرع القاهرة
بعمارة رزق بك رقم ٤٦ شارع المناخ تليفون ٥٢٥٧٨ بعابدين لمعالجة الزهريات والأمراض والتراع التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وتجديد الشباب والتجديد الكبرى . وبعابدين بصفة خاصة : زيارة الحاسة طبقاً لأحدث الطرق العلمية
والعيادة من ١٠-١٢ ومن ٤-٦ . ملحوظة : يمكن اعطاء نتائج بالمراسلة للمعهد بعيد أعياد الفائدة
بقنا أمام مجرى الوشتة البكرية البحرية بالمنزلة على ١٤١ سواقة الى يمكن الصعود عليها خلف ٥ قروش